الكيف لا الكم

للاستاذ أحمد أمين

روي ان ابن سينا كان يسأل الله أن يهبه حياة عريضة وان لم تكن طويلة ، ولعله يعني بالحياة العريضة حياة غنية بالتفكير والانتاج ، ويرى ان هذا هو المقياس الصحيح للحياة ، وليس مقياسها طولها اذا كان الطول في غير انتاج ، فكثير من الناس ليست حياتهم الا يوما واحداً متكرراً ، برنامجهم في الحياة أكل وشرب ونوم ، أمسهم كيومهم ، ويومهم كغدهم ، هؤلاء ان عمروا مائة عام فابن سينا يقدره بيوم واحد ، على حين انه قد يقدر يوما واحداً — طوله أربع وعشرون ساعة — بعشرات السنين اذا كان هذا اليوم عريضا في منتهى العرض ، فقد يوفق المفكر في يومه الى فكرة تسعد الناس أجيالا أو الى عمل يسعد آلافا ، فحياة هذا — وان قصرت — تساوي أعمار آلاف بل قد تساوي عمر أمة ، لأن العبرة بالكيف لا بالكم .

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

وتقدير الاشياء بالكيف لا بالكم منزلة لا يصل اليها العقل الا بعد نضوجه . أما الطفل في نشأته ، والامة في طفولتها فاكثر ما يعجبهما الكم ، فالريفي عنده خير « الخيار » ما كبر حجمه وبيع بالكوم ، والمدني خير « الخيار » عنده ما نحف جسمه وكان « كالقشة » ويبع بالرطل . والطفل وأشباهه يرغبون بكثرة العدد لا بجودة الصنف ، فحيثما مررت في الشارع أو زرت متجراً رأيت اكثر الترغيب بالكم « فاربعون ظرفا وجوابا بتعريفة » ، و « دستة اقلام رصاص بصاغ » ، وهكذا ، وسبب هذا ان البيع والشراء يعتمدان على ادق قوانين علم النفس ، والباعة من اعرف الناس بهذه القوانين التي تتصل بعقلية الجمهور ، فهم يعلمون انهم اكثر تقويما للكم ، واكثر انخداعا بالعدد ، فهم يأتونهم من نواحي ضعفهم وموضع المرض منهم ، وقل ان يرغبوهم في الشيء بانه من « العال » أو « عال العال » لان هذا تقدير للكيف وليس يقدره الا الخاصة .

وكل انسان قد مر بدور الطفولة ، والامم جميعها مرت كذلك بهذا الدور فعلق باذهانهم تقدير الكم ولم يستطيعوا ان يتحرروا منه مهما ارتقوا ، وأصبحوا — حتى الخاصة منهم — ينخدعون بالكم من غير شعور وبلا وعي ، وصار هذا مرضا ملازما ، انما يتحرر منه الفلاسفة والى حد ، ألا ترانا نري الرجل الضخم حسن الهيئة جميل الطلعة فنمنحه الاحترام ، ولو لم نعرف قيمته ، ونرى الرجل صغير الجسم غير مهندم الثياب فنحتقره لأول وهلة من غير ان نعرفه ، واساس معاملتنا بالاجمال احترام ذوى المظاهر الجميلة حتى يثبت العكس ، واحتقار ذوى المظاهر الوضيعة حتى يثبت العكس ، وليس ذلك الا من خداع الكم ، ولو انصفنا لوقفنا على الحياد من الجميع حتى نتبين الكيف .

ونرى ذا العمامة الكبيرة واللحية الطويلة فنعتقد فيه العلم والدين ، مع ان لا علاقة بين كبر العمامة وطول اللحية ، وبين العلم والدين ، وان كان ثمت علاقة فعلاقة الضدية ، لان الدين محله القلب والعلم موطنه الدماغ ، واذا ملىء القلب دينا والدماغ علما ، احتقر المظهر وابى ان يدل على دينه او علمه بمظهر خارجي ، بل هو ان امتلأ دينا وعلما انكر على نفسه الدين والعلم ، واعتقد انه ابعد ما يكون عما ينشده من دين وعلم ، وكذلك الشان في اللباس الجامعي واللباس الكهنوتي .

وقديما ادرك العرب خداع الكم فقالوا : « ترى الفتيان كالنخل ، وما يدريك ما الدخل » .

وقال شاعرهم :

ترى الرجل النحيف فتزدريه ... وفي أثوابه أسد مزير
ويعجبك الطرير فتبتليه ... فيخلف ظنك الرجل الطرير

وفي كل شأن من شؤون الحياة وضرب من ضروب العلم والفن ترى خداع الكم ، ولنأخذ الادب مثلا

فالمؤلفون يعلنون عن كتبهم أنها في أربعمائة صفحة — مثلا — من القطع الكبير ، والمتعلمون كثيرا ما باهوا بكثرة ما قرءوا ، والكتاب بكثرة ما كتبوا ، والصحافة كثيراً ما خدعت القراء بالكم . فكان مما اصطنعته زيادة عدد الصفحات في الجرائد والمجلات مع أن الصفحات وحدها كم ، ولا قيمة لها ما لم يصحبها الكيف ، وكم أتمني أن أرى جريدة أو مجلة ترغب قراءها بالكيف فقط ، وإن كنت أجزم بان مصيرها الفشل لأن اكثر الناس لم يمنحوا — بعد — ميزان الكيف

وقد جرت كثرة الصفحات في الجرائد والمجلات الى تحوير الاسلوب الى ما يناسبها ، فكان الاسلوب احيانا كالعهن المنفوش ، يصاغ في صفحة ، ما يصح ان يصاغ في عمود ، وفي عمود ما يصح ان يصاغ في سطر — ولست ادري لم كان الناس إذا ارسلوا تلغرافا

تخيروا اوجز الألفاظ لأغزر المعانى ، ولم يفعلوا شيئا من ذلك فى كتبهم ورسائلهم ومقالاتهم ؟ ولعلهم يفعلون ذلك لأن الكلمات فى التلغراف تقدر بالقروش وليس كذلك فيما عداها - إن كان هذا هو السبب دل على تقدير القرش اكثر مما يقدر زمن القارىء والكاتب، وفى هذا منتهى الشر ، وفى هذا اقسى مثل لغفلة الناس فى تقدير الكم لا الكيف

وقديما عرض علماء البلاغة للكيف والكم فى الأدب وسموهما اسما خاصا هو الايجاز والاطناب ، وعدوا الايجاز اشرف الكلام والاجادة فيه بعيدة المنال لما فيه من لفظ قليل يدل على معنى كثير، ومثلوا للايجاز والاطناب بالجوهرة الواحدة بالنسبة الى الدراهم الكثيرة ، فمن ينظر الى طول الالفاظ يؤثر الدراهم لكثرتها ، ومن ينظر الى شرف المعاني يؤثر الجوهرة الواحدة لنفاستها ، ولا يعدل عن الايجاز الى الاطناب إلا لايضاح معنى أوتأكيد راي .

والحق ان الادب العربي في هذا الباب من خير الآداب ، فاكثر ما صدر فى عصوره الاولى حبات من المطر تجمعت من سحاب منتشر ، او قطرات من العطر استخلصت من كثير من الزهر

وبعد ، فلست احب ان تكون كتابتنا كلها تلغرافات ، وإذن لعدمنا ما للاسلوب من جمال، وما لتوضيح الفكرة وتجليتها وتحليتها من قيمة ، وإنما اريد ان يكون المعنى هو القصد وهو المقياس فان أطنبنا فللمعنى ، وإن اوجزنا فللمعنى

واريد ان يقوم الناس الكيف للكيف ، وإذا قدروا الكم فللكيف

ولعل من ألطف ما كان ، اني حين بلغت هذا الموضع من مقالتي اخذت اعد صفحات ما كتبت، فوجدتها قليلة العدد فآلمنى ذلك لأني لم ابلغ ما حررت ان يكون ، ولانى خشيت أن يستصغرها صاحب « الرسالة » وقراء « الرسالة » ، وفرحت بهذه الملاحظة لانها سدت فراغا ما فى المقالة يكمل بعض ما فيها من قصر، ألسنا جميعا عباد (كم) ، أو ليس هذا من نوع تقدير الخيار بالكوم ؟

الشعر المرسل ايضا

للاستاذ محمد فريد أبو حديد

نشرت الرسالة ترجمتين لقطعة من رواية « عطيل » الشهيرة، إحداهما نثر والأخرى شعر مرسل ، وقد حاولت أن أعرف رأى الأصدقاء فى أوقع الترجمتين فى نفوسهم أهى الترجمة الأولى أم الثانية . وكان رأى الكثرة أنه الشعر المرسل . على أن بعضهم استدرك فى قوله ، فقال إن الذى يقرأ السطر الواحد من الشعر المرسل ثم يقف فى آخره ينتظر ما اعتاد انتظاره من انتهاء المعني يشعر بالمضاضة ، و يقبح فى عينه ذلك الأسلوب .

ولكنه إذا قرأ ذلك الشعر المرسل على سجيته فلم يقف الا حيث يقف به المعني وجده قولا سائغا لا قبح فيه .

وها أنذا أعرض على القارىء صفحة من رواية صغيرة لى بها علم وهى فى شعر مرسل . وقف فيها رجل غجرى يحاول إلانة قلب فتاة من جنسه جامحة العاطفة معرضة عنه ، وهي تجيبه إجابة تمنع ودلال .

الفتي : جرحت فؤادى
بدلال يثير فىّ لهيباً
فأعيدى سعادتى وأعيدى
بسمات الرضا أعيدي حياتي

الفتاة : (ضاحكة ساخرة)
ليت قلبي يسير طوعى سميعاً
فيلبى نداء كل شفيع .
ان قلبى له هواه فيمضى
حيث شاء الهوى جموحاً عنيداً .

الفتى : كنت (ميسون) سلوتي وحياتى
فاذكرى عهدنا القديم وعودى
لفؤادى الجريح يا ميسون .

الفتاة : (بعناد)
ان ماء العيون يحلو جديدا
وجمال الغرام أن تتولى
كفراش الربيع بين الزهور